

المِثَاءُ الْمِلْحُ

لِلأُسْتَاذِ أَدِيبِ عَبَّاسِي

حتى غدا من طول
الأنحاء لا ينصب قامة
ولا يقيم ظهراً؟ فإذا
ترك؟! إنني أجيل
عينى هنا وهناك فلا
أرى إلا هذا الثور
المزبل وذلك البهم
لا يمضى يوم أو يومان

حتى ينفق مما أرمقه النير وبهظه الثور قرينه في
الليل عليه والاسراع في السير دونه . ولست أدري
ماذا يكون حالنا هذا العام إذا تأخر المطر أسبوعاً
آخر أو أسبوعين؟ إن لدينا ما يكاد يوصلنا إلى بدء
الحصاد، ولكن ماذا نصبر إليه بعد أوان الحصاد
إذا ظلَّ وجه السماء أمدأ آخر على جفافه الشديد
وجوده المئس فصوص النبت وهلك الزرع الذي
نما مع البدرى^(١) ودلت تباشيره على الخير
الوفير، ولكن شول النيم^(٢) بعده وانقطع القطر
فصدى النبت وجف وأوشك أن يزول؟

هكذا شرع يوسف الجمال يتأجج نفسه لما
نظر حوله ورأى الفقر والخصاصة اللذين خلف
له والده . وفكر ملياً ماذا هو صانع ، أيستمر يفلح
الأرض ويزرعها وتستمر آماله تتراوح بين أقصى
اليأس والرجاء تبعاً لانحباس المطر أو إغداقه .
وهل في ذلك ما يحقق الآمال المعسولة والأمانى
العذاب؟ « ثم لم لا أكون كموسى و خليل
التاجر توفيقاً ويُسرَ حال؟ ولكن أَوَاهُ أَيْنَ

ورث يوسف الجمال عن أبيه بضعة عشر فداناً
من الأرض، ونظر حوله فلم ير غير هذه الأفدة
وزوجة وصياً في الخامسة من عمره وطفلة ماتزال
تجوب، وحيوانين هزيلين يستخدمهما في فلاحته .
وفكر ملياً ماذا يصنع وكيف يسير بقية الطريق؟
أيستمر يستغل الأرض ويستدرّها وهي هنا
— على سيف الصحراء — كثيرة المثل عسيرة
الحلاب شديدة الختل، إذا جادها النيث — وهو
شحيح — فما الزرع، لم يسلم من ريح الشمال
تجففه وتذويه، أو الريح الشرقية تلفحه وتذويه، أو
الدودة تعشش في خيوطه وتأتى عليه، أو الجراد يحط
على الحقل أخضر ممرعاً ويتركه أحمر كالحا لاهية
ولا نماء فيه؟ أيعضى يفلح الأرض ويزرعها، وتلك
هي احتمالات الثراء السريع الذى ينشده وتنمض
على صورته عيناه وتطيف بها أحلامه في البقطة وفي
المنام؟ « كلا ! كلا ! فالأرض التى لا تعطى إلا
الكفاف حين تعطى لا يفتأ المرء لاصقاً بها مشدوداً
إليها ما عاش . وأين من ارتفع وجهه عن الأرض
من ركنوا إلى الأرض؟! هذا والذى رحمه
الله، ألم يقطع أربعين عاماً محنياً فوقها مكبوباً عليها

(١) البدرى : المطر قبيل الشتاء

(٢) يقال شولت الناقة إذا انقطع لبنها

الشعور في صدر الزوج فأطرق يفكر ... ولكن لم تلبث صور الثراء السريع والعيش الموطأ أن رقصت في خياله دورة أو دورتين حتى انحسر عن صدره شعور الحنين والحنف الذي أثارته زوجه بحديثها، فرفع رأسه وخاطبها بحفااء

لقد عرمت على الخلاص من عناء الفلاحة وأتعبها، فلا تلجى في الجدل ولا تهادى في النصح والاشفاق. إننى سوف أكون تاجراً كهؤلاء التجار الذين يقضون أوقاتهم في لعب « الطاولة » أو « المنقلة » أو القمار أو في الجلوس والحديث، ثم في التهويم والنوم وما إليها من أسباب المتع وبواعث اللذة ولم تجادل الزوجة. فهي تعرف من عناده وإصراره ما لا يجدى معه جدل ولا حوار

قبض يوسف الثمن بضع عشرات من الجنيهات وأستأجر دكاناً وحشد فيه من السلع كل ما قدر له الزواج السريع وظن فيه الربح الوفير. وجلس على كرسي في ركن من الدكان ينتظر تهافت الشارين عليه وإرباكهم إياه بكثرة الطلب والمجادلة في جودة السلع وأثمانها. ولكن ارتفع النهار وأقبل الظهير دون أن يؤم دكانه شار؛ وبُعيد الظهير جاءت صبية صغيرة بيضتين تطلب لفلان. فقبض قبضة وصرها في ورقة، ولكن الصغيرة استقلت الكمية وطلبت المزيد، ولما لم يزد لها استردت البيضتين ... وعزى يوسف نفسه بأن الناس لا بدّ مقبلون عليه متى علموا مكانه من السوق وعلموا جودة البضائع عنده ورخصها. ولا حاجة إلى القول بأن النهار الأول مضى دون أن يبيع بما يزيد عن بضعة قروش. وجاء النهار التالى ولم يكن خيراً من سابقه، وكذلك اليوم الثالث والرابع إلى آخر الأسبوع. وعندها أخذ الشك

رأس المال، وكيف أبداً التجارة كما بدأها؟ ولكن هل من اللازم أن يكون المرء تاجراً وزارعاً معاً؟ ولم لا أبيع هذه الفدادين بمحصولها هذا العام فأخلص إلى الأبد من كدّ الفلاحة وعسرهما، وأخلص من ريب المحل هذا العام وكلّ عام؟» وعرض يوسف الجمال رغبته هذه على أهل البلدة، فتقدم حلالاً من اتباع الأفدنة بغلتها، إذ ليس يحفو الفلاح الأمين الأرض مهما جفته وقست عليه، ولا ينقطع له منها رجاء مهما تقطعت أسباب الرجاء. وهو يعلم بعد أنهما جفته لا تحذله، ومهما ضغطت عليه لا تسحقه، وإنما تخرجه جليداً على الشدة أيباً على اليأس

ومن الإنصاف أن نذكر أن زوجه يوسف لم تكن راضية عن هذا التبديل والتحول من استقرار الزراعة إلى مغامرة التجارة. وفي أصبوحة اليوم الذى جرت فيه صفقة البيع جاءت بعينين مفرورتين وأهداب مخضلة وخاطبته: ماذا أنت صانع يا يوسف؟ أتبيع الأرض التى حفظها لك أبوك أربعين عاماً كما حفظها له أبوه وحفظها كل أب لابنه وجد لحفيده حتى وصات إليك غير منقوصة ولا متحيفة؟ ألا نحس بأننا نفقد شيئاً غير التراب والحجارة إذ نفقد الأرض؟ ربك ألا تشفق الحين بعد الحين أن ترى قطع هذه الأرض التى تنل والتى لا تنل، وتجوس خلالها وفي صدرك مثل الذى نحسه لولدك أو منزلك حينما تغيب عنهم أمداً طويلاً؟ تصوركم دغدغ أبوك وأجدادك صور هذه الأرض بمحاريثهم، وكم توسدوا تراها وحملوا الأحلام فوقها! وكم قاتتهم وبنت أجسامهم القوية بما تدر وتنتج! تصور هذا يا يوسف وانظر أى شئ نفقد مع البيع! وكان حديث الزوجة قد نفذ شيئاً إلى مكان

ثمن إذا وجد خيراً منها دلّه على أنك لا تقيم وزناً كبيراً لفضيلة الصدق . أما قولك أنك تبّيعه السلعة بلا ربح فدلالة الكذب فيه واضحة ، إذ لماذا أنت هنا إذا كنت تبّيع السلعة برأس المال متجاوزاً عن الربح ؟ وهب أنك أخجلت الرجل فابتاع السلعة فهو ليس بمائد إلى دكانك مرة أخرى ، فالشارى يحب أن يكون حرّاً فى كل شيء ، حرّاً فى الاختيار ، حرّاً فى تعيين الثمن ، حرّاً فى ألا تظن فيه الكرازة وحب الماكسة ؛ وإذا استشعر شيئاً من ذلك فى دكان من الدكاكين فليس بمائد إليه . هذه أمور لعلك تجهلها لقلة خبرتك بشؤون السوق وتركك مشتري حاجات البيت لى . وكم ألححت عليك أن تقوم أنت بشراء ما محتاجه فكنت تعتذر بأن تنفيك فى شئون الفلاحة سحابة النهار لا يسمح لك بارتداد السوق ومعرفتها جيداً . وإذن إليك ما أفدته بالخبرة من هذه الشؤون ، وما هو خليك أن يجتنب الشارين ويُحسن الحال : عليك أن تبسط وجهك وألا تكثر من التوكيد والأقسام ، وأن تكون صبوراً ، وألا تشمر الشاري شيئاً من الضيق والحرص أو الاحتقار ، فليس أقتل للتجارة وأدعى لبوارها من هذه . اعرض حاجتك عرضاً مقبولاً وأرح نفسك وأرح الشارى من الأيمان ، فهى لن تزيد يقيناً بما تقول . امتدح السلعة ودلّ على صفاتها ولكن باعتدال . وإياك ومثل هذه الأقوال : « إن سلمي خير ما فى السوق ، وإنني أعطيكمها بلا ثمن » وغيرها مما لا يفيدك شيئاً إلا اعتقاد الشارى أنك تكذب وأن السلعة قد تكون من الرداءة بحيث تحتاج إلى كل هذه الأقسام والتوكيد . ثم إياك أن تبدى شيئاً من الدهشة أو الامتناع مهما عرض الشارى ثمناً للسلعة . أفهمه بلطف أن الثمن الذى يعرضه هو دون ما يستطيع بيعها به ؛ وإذا خرج لم

يذهب إلى نفسه والوساوس تساوره ؛ وأفضى إلى زوجته بما أخذ يتدسس إليه من ريب وشكوك غاطبته بقولها : عليك أن تصبر هنا يا يوسف صبرك على الأرض أو أكثر ؛ وأزيدك أن احتمال الخسارة المفاجئة هنا أشد وأنكى . فأنت فى الفلاحة إذ تفقد بعض ما تفقده بموضع عليك عنه غالباً فى السنوات الآتية ، والأرض بعد باقية لك ، ولكن الخسارة فى التجارة معناها الدمار والخراب . وكم من تاجر أصبح فى نعيم وبلهنية وأمسى فى شقاء الفقر وضيق الفاقة ! فواجبك إذن الصبر وطول الأناة . وعلى كلٍّ أحب أن أزل غداً لأرى كيف تبّيع وفى صباح اليوم التالى نزلت الزوجة وجلست بين الجدار وبين رفوف السلع القائمة بحيث ترى ولا ترى . وجاء أول شار فقام زوجها وعلى وجهه جهومة الارتياح وكدرة الهم وأحضر حاجة الرجل ، فقبلها هذا بين يديه فلم تمجبه وطلب خيراً منها ، فأجابه يوسف : إن هذه السلعة خير ما عندى ، ولن ترى أحسن منها فى جميع السوق . وأقسم لك بشرفي أنني أدفعها لك بلا ثمن إذا وجدت أفضل منها ؛ ثم إننى أكتفى منك ثمناً لها برأس المال . إلا أن الشارى هز رأسه وخرج لم يشتر شيئاً . ولم تطلق الزوجة صبراً فخرجت إليه وقالت : الآن علمت لماذا يتجنب الناس دكانك ؟ لتعلم أن أكثر الناس يكرهون العبوس والا كفهرار فى وجه التاجر ، فلكل الناس همومهم ؛ ويجب ألا تضيف إلى همومهم همك . ثم إن لجأجتك وإلحاحك على أن حاجتك هى أحسن الحاجات يثان الشك والريب فى نفس الشارى . فالناس تعلم بالخبرة أن التاجر لا يطلب فى امتداح السلعة إلا إذا كان يشك هو فى جودتها ، وإلا لترك هذه السلعة تعلن عن نفسها بنفسها . ثم إن توكيدك الأقسام بأنك تقدّم السلعة للشارى بلا

وعلى كل فأنا محصن نفسي من الآن وعازم ألا يزيد
البلغ الذي أقامر به على بضعة قروش

وفي الليل أم يوسف مجلس المقامرين في أحد
الدور المتطرفة ، وتلطف به المقامرون القدماء فقام
وقد أضيف إلى عشرة القروش التي جاء بها عشرات ؛
وانكفاً إلى بيته وإهابه لا يكاد يسهه من فرط
السرور ؛ وأيقن بأن نجمه أخذ في الصعود وأنه
لا بد مدرك الثراء السريع وبحقق أحلامه بمجملتها
وسألته زوجته فيم كان تأخره ، فتلطف لها
بالاعتذار ودفع إليها حفنة من قطع النقود المختلفة ،
وسألته في هذا المبلغ الكبير من أين جاء ، فأجاب
بأن توفيقه في البيع ذلك النهار كان توفيقاً نادراً
وعاد يوسف طبعاً إلى مجلس القمار في الليلة
التالية ، وعاد إلى الكسب والخسارة كما كان يحلو
للمقامرين الماهرين حتى لا يوثسوه من القمار قبل أن
تتمكن عادته منه ، وعندها ما أسهل أن يجردوه من
كل ما لديه

وهكذا صرت الليالي وصاحبنا لا ينفك يقامر
ويقامر . وفي خلال ثلاثة أشهر افتقد ما لديه من
الدراهم التي كان ينوى أن يتناع بها بضاعة جديدة
في أول الموسم ، فأصبحت يده صفراً . وهنا شعر
كأن قلبه يهبط من موضعه ، وكأن ماء بارداً يصب
على جسمه . فلم يكن يقدر أن القمار يفعل به كل هذا
الفعل ؛ ولم يكن يجرؤ أن يجري حساباً على ما لديه
حتى يظل على اطمئنان الجهل بحاله ، وما أودى به
القمار من ماله . وكانت هذه الصدمة تعيد إليه رشده
لأنه لم تكن العادة قد استحكت منه إلى الحد الذي
يكاد يستحيل الفكك منها عنده . ومن هنا صار
همه بعدها أن يبيع في النهار ما يستطيع بيعه
ويذهب في المساء يقامر به عليه يسترد بعض
ما فقد . ولكن هيهات ! فقد أعمته الخسارة وأضحى

يشتري شيئاً فلا تشيعه بدمدمة الامتعاض وعبوس
الفشل . ثم الربح ، اكتف منه بالقليل تبع كثيراً
وترجح . وبالجملة عليك أن تجعل علاقتك بالشارى علاقة
مقبولة غير منفرة

وكان يوسف استفاد من نصائح زوجه الذكية
وخبرتها الصحيحة ، فتحسنت عنده نسبة البيع
اليومي ، فبش وتطلق وجهه بعد أن كان يقالب
نفسه مغالبة على اصطناع البشاشة والجبور .
وسارت الحال سيرها الطبيعي عاماً وبعض العام ،
وحسب يوسف أرباحه عند نهاية العام فوجدها
لا بأس بها ، وإن كانت دون ما كان يؤمل من
الغنى المفاجئ وهو شهوته التحكمة وهواه الكمين
الذي طلق الفلاحة من أجله ... وعلى كل فقد
عزم على أن يمضي في هذا السبيل قدماً ، فليس
بعيداً أن يصبح في خلال بضعة أعوام كأغنى تاجر
في البلدة . ثم ألم تيسر له هذه التجارة حياة الدعة
والراحة كما كان يتشهى ويأمل ؟

غير أن جموح الخيال وزرق الشهوة جملاه على
غير استقرار من أمره ، فعاوده هوى الغنى السريع
على مستوى جديد أعلى من مستواه الأول . وإذن
فتجارته هذه بحالتها المحدودة لا تنيله وطراً ولا تبلغه
غاية . فإذا يصنع إذآ ؟ قام في نفسه هذا السؤال
وأبى أن يتراجع ؛ وعندها أحس كأن شيئاً من
داخله يوسوس له ويهتف به : ما ضرك يا يوسف
لو جربت حظك — كما يجرب الناس حظوظهم —
في القمار ؟ وأراد يوسف أن يطرد من صدره كل
ما يبعث على التردد فيما يوسوس له به ، فقال : لن أقامر
بمبالغ كبيرة ، يكفي ربح يوم واحد . هاهم أولاء أناس
أعرفهم لا يفتأون يقامرون ومع ذلك لم يفتقروا
ولم تخرب بيوتهم ، كما يقال عادة عن عواقب القمار .

لك البيت لتبيعه حينما تحتاج إلى ثمنه . ألا يسرك هذا ؟ !

— أرجوك يا مريم ، أرجوك ! لا تفضحيني ! أقسم لك بشرفي وروح والدي أن يكون هذا آخر عهدى بالقمار ! كفى ما جرّه علينا من دمار

وقام إليها يترضاها ويقبل جبينها حيناً ووجنات الطفلين حيناً آخر . وما زال بها حتى فتر عزمها على الذهاب ، فمادت إلى البيت وذهب هو إلى عمله ***

وعادت الأمور إلى مجاريها واستردّ يوسف شيئاً من نشاطه بعد أن انقطع عن القمار ، وكاد يلم شتمه ويرأب بمض الصدوع في تجارته التي أوشكت على البوار ، وظل حاله في انتعاش إلى أن هبط البلدة رجل غريب يحمل كتاباً في كيس من قماش ، ولم يطل المقام بهذا الرجل الغريب حتى شاع في البلدة أن لديه في كتابه مفاتيح الكنوز التي خلفها الأوائل والتي لا تزال مطمورة في الخرائب والقبور القديمة المبتوثة حول البلدة . وبحكم العلة المستحكمة والهوى الزمن كان صاحبنا يوسف أول المصدقين لما أذاع الرجل عن نفسه من القدرة على كشف الكنوز . وفي ذات مساء دار حديث بين يوسف وهذا الرجل كانت نهايته كالآتي :

— أتؤكد لي أنك قادر بكتابك وسحرك على الاهتداء إلى مواضع الكنوز وكشفها يا أبا ميسور ؟

— ثقي بهذا وثوقك بأن في وجهك عينين وفي يديك عشر أصابع

— ماذا لو شرعنا في البحث إذن ؟

— ولكن البحث يحتاج إلى أشياء يا صاح : يحتاج إلى البخور وغيره مما نستعين به على طرد الأرواح التي أقامها الأولون على هذه الكنوز لتضلّل

من السير على القامرين الماهرين أن يخدعوه ويجرّوا عليه النش في اللعب . وكانت زوجته تسأله عما صارت إليه تجارته ، ولم تَرِ البضائع تذهب ولا يوقى لها بموض ؟ فكان يجيبها أجوبة فيها امتعاض وصرف عن التماذي في السؤال . وأخيراً عولت على معرفة الحقيقة من طريق آخر . ولم يطل بها البحث حتى عرفت كل شيء

وعاد يوسف كمادته متأخراً إحدى الليالي فوجد زوجته ما زالت جالسة عند رأس ابنها ورأسها منكس إلى حجرها ، فهمس متكلفاً السرور والغبطة ، إلا أنها رفعت رأسها ولم تجبه بشيء ، وإنما كان على وجهها التجهّم وفي عينيها المحمرتين وآثار الدمع على خديها ما صرفه إلى فراشه دون أن يتبس بينت شفة . فلقد شعر بأنها عرفت حقيقة حاله وما آل إليه أمره ، وخير له إذن أن يتجنب العاصفة وهي في إبان عصفها

وفي الصباح قامت زوجته إلى ابنها وأخذتهما بيديها وسارت تبني الخروج . فناداهما : إلى أين وما ذا نعين ؟ فأجابته بحفاء : هذا لا يعنيك . إنني ماضية أقيم مع أهلي بضعة أسابيع

— ولكن كيف لا يعنيني غيابك ، ومن يقوم بشؤون البيت ؟ وهل تظنين أنني أقدر أن أخبز وأطبخ وأقوم بمهام التجارة ؟

فخدجته بنظرة لم يستطع أن يتلقاها بعينيه ، فكسر نظره وإن لم يشح عنها بوجهه ليومها أنه مازال ناظراً إليها ولم ترعبه بنظرتها ، وتقدمت خطوة نحوه وسألته بلهجة لم يسمع منها مثلها قط :

أقول مهام التجارة ؟ ! سمعتك تقولها ! وهل بقيت لك تجارة لتقوم بمهامها ؟ ! لقد طلبت الراحة إذ طلقت الفلاحة ، وسوف تراح راحة تامة حينما يأتي القمار على البقية الباقية ... هذا وأحب أن أترك

الباحثين أو تنولهم أو تخفى الكنز كلما أوشك أن
يشكشكف

— هذا على يا أبا ميسور ، وإيس عليك منه شيء .
هكذا اتفقا . وفي الصباح نقد يوسف صاحبه
نصف جنيه يشتري به بخوراً وغيره مما سيحتاج
إليه في طرد الأرصاد وترضى الجن
وسرعاً في البحث مستترين خشية الافتضاح
والوقوع تحت طائلة العقاب

اختار صاحبنا أبو ميسور مغارة من المغاور
النائية عن البلدة لأن كتابه — كما زعم — دله على
وجود كنز من الكنوز فيها . وشرع ينظر في سقفها
وجوانبها ملياً ويقرأ في كتابه ، ثم أخذ يقيس أبعادها
ويرسم خطوطاً متقاطعة فيها إلى أن انتهى إلى نقطة
معينة رسم حولها دائرة ، ثم أوقد النار وألقى عليها
البخور ، ثم نثر عليه مادة أخرى لم يدر صاحبنا يوسف
ما هي . ولما سأله عنها أجابه : هي خليط من مواد
عديدة يؤتى بها خاصة من الهند والصين ؛ ومن هنا
كانت كثيرة التكاليف عزيزة إلا على من يذل في
إعدادها المال الوفير

وأشار أبو ميسور إلى الدائرة التي رسمها في قاع
المغارة وقال ليوسف : أحفر هنا . وأخذ يوسف
المعول وشرع يحفر بقوة وحماسة شديتين . وفي
خلال ثلاث ساعات فتح حفرة تكاد تغيب الرجل
وهو منتصب . وانتبه يوسف إلى عمق الحفرة التي حفر
وإلى يديه اللتين مجللتا^(١) من شدة العمل ، فاستولى
عليه الريب وشعور الخيبة فأحس بالتعب الشديد
والكلال المفرط . ولما عاود الحفر عاوده يبطء وضعف
ظاهرين . ولاحظ أبو ميسور ذلك وأدرك علته ،
فقال كأنه يحدث نفسه : يخيل إلى أن هذا البخور

(١) مجلت اليد نطقت من العمل

الذي ابتعناه بنصف جنيه ليس من الصنف الجيد
الذي يجعل دخانه طرد الأرصاد واطهار الكنوز .
وعلى كل فقد يكون سبقنا إلى الكنز باحث فاستحوذ
عليه دوننا ؛ فخير لنا إذن أن ننقل إلى مغارة أخرى
ولم يفت صاحبنا يوسف ما ناجى أبو ميسور به
نفسه ، لأن التعب والريب صيِّرا شديداً الإصغاء
والسماع ، ولأن هذا — أبا ميسور — أراد ألا يصل
صوته من الحفوت إلى درجة الخفاء

— صدقت يا أبا ميسور ! قد يكون سبقنا إلى
الكنز باحث غيرنا فناله دوننا
— قد يكون هذا وقد يكون أن البخور ليس
من الجودة والنقاء بحيث يحدّر الأرصاد فتتخلى عن
الكنز الدفين

— غداً نجدد البخور إن شاء الله
— ولكن نصف الجنيه الذي دفعته إلى
استئفدناه في مشتري هذا البخور الرديء
— غداً يكون لديك غيره . لا يهمك أمر
الدراهم . كلما احتجت إلى مبلغ فأنا أدفعه إليك
وهكذا سار الحال على هذا النوال بضعة أسابيع
ويوسف دائب على الحفر في ظلام الليل ودفع المبلغ
بعد المبلغ إلى صاحبه ليشتري البخور وخلافه من
المواد أثنى كان يُغرب في تسميتها دون أن يكون لها
وجود البتة ، لكي يشده يوسف بعلمه ووقوفه على
أخفى الأسرار التي تتعلق بالبحث عن الكنوز ، وحتى
لا يوائسه من أمل النجاح قبل أن يكون استصفي
البقية الباقية في دكانه

وكان يوسف وصاحبه يحفران كل مغارة
وينبشان كل قبر في البحث عن الكنوز . وكانت
تقع لهما في أثناء البحث وقائع ومفاجآت عديدة ،
كأن يفضي البحث والحفر إلى مغارة مطمورة
فينتفش الأمل الداهب ، وأن ينتهيا إلى نفرة

— إلى البلدة ! إلى البلدة وإلى البخور من أجود الأصناف ! لا تسر على الأرض بل طر طيراً في الهواء . هيا ! هيا ! وإلا طار الكنز وطرت أنا معه !!!

وشمر يوسف أذياله وانطلق يعدو في ناحية البلدة بسرعة المجنون

ولا حاجة إلى القول بأن يوسف عاد بعد ساعة يحمل البخور فلم يجد أباً ميسور . ونظر في قاع الحفرة فرأى مكان الابريق حفرة خالية ، فصاح صيحة خرجت معها البقية الباقية من عقله ؛ وشرع يلطم وجهه ويلطم صدره وهو في خلال ذلك يصيح أخذتهما الأرصاد !! أخذتهما الأرصاد !!

واثنى يعدو راجعاً إلى البلدة ولازمة جنونه : أخذتهما الأرصاد ! أخذتهما الأرصاد ! وسار في سوق البلدة يلطم وجهه ويكرر الصراخ : أخذتهما الأرصاد ! أخذتهما الأرصاد . وحف به الصبية من كل جانب وأمسك كل بحجرين وشرع يقرعهما ببعضهما ببعض ويصيح : أخذتهما الأرصاد ! أخذتهما الأرصاد ! وظلوا وراءه يقرعون الحجارة ويردون على لازمته بمثلها إلى أن أبلغوه منزله على هذه الحال من المته والجهال

أما مريم زوجته التمسة فلم تقتلها الصدمة وإن كادت تصرعها ، فلقد خفف وقعها بمض الشيء أنها كانت تقدّر لزوجها شيئاً قريباً من هذا منذ رآته ينصرف هذا الانصراف الجنوني إلى البحث عن الكنوز ، وفشلت فشلاً تاماً في صرفه عن هذا الاتجاه الجديد الذي وضعه في جو من الخفاء والاعتقاد يسهلان ضمضة الحس واختبال الفكر لقد كانت مريم بطفلين وزوج يعولهم ، أما الآن فقد أضحت بثلاثة أطفال عليها أن ترى هي كيف تمولهم ... !! أرب عباسي

في صخر رأس أو جرة مهشمة فيضرب أبو ميسور كفاً على كف ويشرع يندب سوء الحظ الذي حملهما بجيثان متأخرين في البحث حتى يكون الكنز المنجوه نصيب غيرهما ممن سبقوها إلى التنقيب ، أو كأن يطير خفاش أو بومة فيطير له قلب يوسف الذي غدا يعتقد اعتقاداً جنونياً بالأرصاد وصار يرى في كل ما يدب أو يطير في هذه المغاور رسداً بصورته الحقيقية أو التخفية ، كما لم يفتأ يوحى إليه أبو ميسور

وتشاء الصادفة أن يحفرا بعد يأس في منارة مرابها أولاً ، ولكن أباً ميسور أهملها لأنه لم ير فيها دليلاً على وجود كنز من الكنوز فيها ، فيكشف الحفر فجأة عن إريق من البرز بغطاء محكم . ويرفع يوسف الغطاء بحركة عصبية لا وعى فيها . ولا بد له ما كان بداخله صاح صيحة مرعبة هرع لها أبو ميسور من ركن المغارة حيث كان يحرق البخور ويمزم ؛ ونظر إلى أسفل ، وعندها صاح : مكانك ! إياك أن تمسه ! الرصد ! الرصد بدأ يتحرك ! آه لقد أخذ بضابقي البخور ! محتاج إلى البخور وإلا غاب الكنز وهلكنا ! السرعة ! السرعة إلى البلدة وإلى البخور ! الباقي يوشك أن ينفد ! الأرصاد بدأت تضيق على ، الأرصاد !

وخرج يوسف من الحفرة مغفور الفم مضمض الأعصاب زائف العينين راعش اليدين ، ونظر إلى أبي ميسور وهو عند باب الحفرة يحرق البخور ويقرأ ويمزم نظرة فيها توسل الرجاء ، وبريق الأمل ، وفيها بلاهة الدهشة ورعدة الخوف . لقد تحقق أمل العمر أو كاد ، وحومت السعادة فوق رأسه . ولكن الرصد ! الرصد يوشك أن يطيرها !

— ألا تزال واقفاً ؟ ألا تتحرك يا خشبة ؟ !
— نشدتك الله يا أباً ميسور ما ذا أصنع ؟ !